رحلتي إلى النجاح

لينا عليان

من البدايات الصعبة والعثرات القوية .. إلى النهايات الناجحة. الدراسة متعة .. والمرحلة الدراسية من أمتع لحظات الحياة .. ولا يعرف حلاوتها إلا من تذوقها. متعة التعلم لا تضاهيها متعة، وبخاصة إذا ارتبطت عند صاحبها بذكرى التميّز والتفوق ... وتكللت بالنجاح.

هنا سأروي لكم قصتي مع الحضن الذي شملني برعايته اثني عشر عاماً «مدرستي» ... تبدأ مسيرتي الدراسية في مدرسة بنات بيت عور التحتا الثانوية، حيث كنت أستعد للحصول على شهادة التعليم الأساسي، وكُلي شوقٌ وتوقٌ لإتمامها والانتقال إلى التعليم الثانوي .. كنت دائماً مجتهدة في دراستي وأسعى إلى التفوق والتميز وتحقيق المراكز المتقدمة، وكلما حققت نجاحاً أو بلغت قمة، سعيت نحو نجاح آخر، وأعددت العدة لبلوغ قمة أخرى .. هذا دأبي .. وهذا قدري .. وهذا مساري .. لم يكن هدفي الحصول على جائزة مادية أو الحصول على مكافأة صغيرة أو كبيرة، بل كان الدافع الأول والأخير هو الطموح وتحقيق النجاح والتميز والتفوق .. أي أن الدوافع عندي كانت داخلية بحتة .. اجتهدت كثيراً حتى وصلت إلى مطلبي، إذ كنت في كل سنة مثالاً للطالبة المتفوقة المتميزة على طالبات صفها، وأحيانا على طالبات المدرسة كلها .. دائماً أحصل على الدرجة الأولى، وأنال جائزة التميز والمثالية .. وبالفعل اجتزت تلك المرحلة وبتوفيق الله ورعايته انتقلت إلى المرحلة الثانوية، لألتحق بالفرع العلمي وأحقق حلمي المنشود .. إذ لم يكن أمامي سوى هدف واحد منذ نعومة أظفاري، وهو أن أصبح طبيبة أو صيدلانية، وكنت أحصل على التشجيع من أهلي في هذا المقام ... .

لم يكن خيار أن أصبح معلمة وارداً في ذهني إطلاقاً ... فهل يعقل أن أضيع شبابي كله في أداء رسالة كونية دون أن أحظى ولو ببعض الاحترام والتقدير؟! فالراتب متواضع لو قمت بمقارنته على سبيل المثال بالشركات الخاصة ... والعلاوات شبه غائبة وفقيرة إن وجدت ... والتشجيع غير موجود ... إضافة إلى غياب التقدير الاجتماعي ... لماذا أعمل في وظيفة أتعرض فيها بشكل يومي إلى مزاجية المديرة أو النائبة التي جاءت إلى المنصب لتصب مشاكلها وضغوطها النفسية علي ... وإذا لم أتناسب مع مزاجها كل صباح .. فإني بذلك ربما أتعرض للمساءلة أو للإهانات المتكررة ... كيف تطلب مني أن أظهر بكامل احترامي أمام أعداد هائلة من الطالبات، وأبذل قصارى جهدي لإيصال المعلومات لهن .. وأنا أعيش كل يوم تحت ضغوط إدارية .. وضغوط لوزارة لا تفهم كيف تقدرني .. أو تضعني في المكان الذي يلائمني .. بل على العكس تجبرني أن أكون في هذا المكان دون رغبتي .. وتنقلني لذلك المكان أيضاً دون رغبتي .. في نهاية الأمر، فأنا أعيش معلمة وأموت معلمة دون أن يكون لدي خيار آخر! هكذا كانت صورة المعلمة في مخيلتي، وكان هذا نابعاً من رؤيتي لواقع المعلمات أمامي.

عود على بدء ... ولأني اخترت الفرع العلمي لم يكن أمامي إلا أن أنتقل لمدرسة جديدة، وفي ذلك الوقت كان الخيار مدرسة بنات رام الله الثانوية .. وهناك تمنيت لو أني لم أترك مدرستي ومعلماتي وصديقاتي، فقد تغير حالي وتبدلت أحوالي ... معلمات جدد عنيفات متسلطات .. طالبات لم تربطني بهن أي علاقة سوى علاقة الزمالة .. باستثناء ثلاث طالبات كنت مقربة منهن بحكم أننا كنا نذهب ونعود سوية بالمواصلات نفسها، وكنَّ من قرية مجاورة ... لم يكن أمامي إلا أن أعقد النية على التفوق والاستمرار في حصد النجاح تلو النجاح على الرغم من المعوقات التي تمثل أمامي ... وبالفعل انطلقت في برنامج الدراسة، لكني وفي كل يوم عندما أدخل أبواب تلك الثانوية ينقبض قلبي وتتراجع قدماي، وكأن لسان حالي يقول أكره الولوج إلى صفي ... ولكني تمسكت بالصبر لأكمل ما تبقى من هذه السنة والسنة المقبلة، فليس لي خيار آخر سوى الصبر والمزيد من الصبر ... فلم أكن أحب معلمة الرياضيات، و لم أفهم عليها، وكنت دائماً أحصل على علامات متدنية معها لأسلوبها السيئ في طرح المادة التعليمية، ولن أنسى «أليكس» ما حييت ذات الوجه العبوس ... وكنت أخاف من معلمة الكيمياء «حياة» لدرجة أنني أكره اسم «حياة» حتى يومي هذا، لأنه يذكرني بها ... فقد كنت أكره حصّتها، وعلاماتي كانت متدنية معها .. لن أنسى كيف لعبت على أوتاري النفسية عندما سلمتني أول ورقة اختبار معها وقالت لي أمام الطالبات «لينا 4 من 10 .. أنت علمي هاد ما بنفع». كانت كالصاعقة

تنزل على روحي وتضعف عزيمتي .. ومع هذا وذاك، انقضت السنون وتجاوزت تلك المرحلة بمعدل جيد جداً ... لم أكن لأتوقع مثل هذا الأمر .. فلم أفشل في أي مرحلة دراسية سابقة، وكنت مثالاً للطالبة التي يُقتدى بها في مدرستي .. وما زالت ترّن في أذني جملة مديرتي في المرحلة الأساسية وهي تقول لوالدي في كل مرة يأتي ليسأل عني «يا ريت عندنا في المدرسة عشرة متل لينا». ما زلت أعشق كلماتك مديرتي «سلوى حبش»، وأدعو لك .. هنا يمكنك تخيل هول الموقف بالنسبة لي ولأهلي ولعائلتي ولأصدقائي بهذا المعدل المتدني بالنسبة لي ... وقلت في نفسي ما الفشل إلا هزيمة مؤقتة ستخلق لي فرص النجاح. وتساءلت في نفسي: هل النجاح ضربة حظ؟ شيء نادر يحدث مرة ولا يتكرر؟ هل الناجحون ولدوا ليكونوا كذلك لحكمة إلهية لا سبيل لفهمها؟ هل الفاشلون مقدر لهم الفشل .. وبالتالي فلا توجد قوة تحت سماء هذه الأرض تستطيع أن تغير من قدرهم وحالهم هذا؟ تأتي على كل واحد منا فترات يشعر فيها بأشد درجات الإحباط .. وهذا ما حصل لي بحق .. فقد كنت محبطة جداً .. وبفضل الله ومن ثم أهلي وأصدقائي الحقيقيين استطعت تجاوز هذه المحنة، وكان لدي الكثير لأتعلم وأبدع في حياتي الجامعية ... فعلى الرغم من أنني لم أكن أتصور في يوم ما بأنني أدرّس العلوم ... فأنا أكره الرياضيات والكيمياء .. ولكني حظيت بأساتذة رائعين جعلوا الموضوع شائقاً وجديراً بالاهتمام، ما دفعني إلى التعمق أكثر في هذه المواد .. وبعد الإصرار والمثابرة تخرجت بحمد الله من كلية العلوم في فترة زمنية مدتها ثلاث سنوات ونصف، وكنت الخريجة الوحيدة من دفعتي في تلك السنة بفضل الله تعالى .. بمعدل أرضاني وأرضى والدي .. فالطموح كنز لا يفنى ... ولا يسعى إلى النجاح من لا يملك الطموح .. فكنت طموحة وأنظر إلى الأعلى دائماً .. وعملت بجد وكدّ لأحصد هذا النجاح .. وعندما تذوقت طعم النجاح في هذه المرحلة المهمة في حياتي .. وجدته حلو المذاق لا يساوم عليه أحد فكان لزاماً عليّ أن أواصل ما بدأت به.

تخرجت من جامعة النجاح الوطنية .. تلك المرحلة التي توجت سنوات طويلة من الجد والنشاط والحرص على تلقي العلم والعمل به ممزوجة بتقدير واحترام كل من تتلمذت على أيديهم من أساتذة ومربين أفاضل .. هنا يمكنني أن أقول إنني قابلت العديد من المعلمات والأساتذة .. وصادقت الكثير. منهم من ترك ذكرى في النفس لا يمكن أن أنساها ... ومنهم من أمر عليهم في ذاكرتي مرور الكرام ... ومنهم من لا أتذكره أصلاً وما أكثرهم! ولم يمض على تخرجي خمسة أيام حتى تفاجأت بهاتف يرن في الساعة الثامنة والنصف صباحاً، ليخبروا والدتي بأنّ علي الذهاب فوراً في اليوم التالي إلى مدرستي الأولى؛ مدرسة بنات بيت عور الثانوية، لأعمل بديلةً حتى نهاية الفصل الثاني ..

وبالفعل، ما بين خوف ورهبة كوني خريجة صغيرة، ولا أملك الخبرة الكافية في التعليم، إلاّ أنني ذهبت بخطى قوية، و لم أجعل أحد يلتفت إلى الخوف الذي بداخلي ..

مضيت ومضت الأيام .. وكان كل شيء على ما يرام .. كنت أدرّس الصفوف من التاسع وحتى الثاني عشر .. وحين جاءت المديرة لحضور حصة إشرافية قالت لي: «أنت رائعة» .. لكنك لم تستخدمي أي وسيلة غير السبورة، وهذا غير كاف في التعليم .. أدركت أهمية كلامها .. وعرفت حينها الوسيلة التعليمية .. لم أكن أعرف ما هي الوسيلة التعليمية من قبل، وما أهميتها .. لم تكن معلماتي يستخدمن إلاّ أسلوب التلقين وسرت على نهجهن ..

وتنقلت بعدها بين أربع مدارس ولفترات قصيرة .. وكنت دائماً أتعلم الجديد وأكتسب الخبرة الواسعة .. وما أن وقفت على أعتاب صفحة كان عنوانها «مدرسة بنات صفا الثانوية»، أبت الصفحة أن تطوى، بل طالت وامتدت .. وفي كل سطر من سطورها كنت أرى إبداعاً وتميزاً من زميلاتي .. وهو ما أعطاني رافداً مهماً وأساسياً للطاقات الإبداعية الخلاقة في القطاع التربوي التعليمي .. إذ أعطتني حافزاً مهماً لبناء التقدم في مسار المهنة .. وكمعلمة بت ألمس تطوراً هائلاً في هذا المجال، وأصبح التنافس يؤتي ثماره على طالباتي من حيث التطور أكاديمياً .. فمدرستي رواية لا تنتهي، وفي كل فصل أتعلم منها الكثير .. فقد جمعت مدرستي عناصر عدة جعلتني أحبها وأحب كل ما فيها وأعشق الدوام فيها .. وبناء على ذلك، قمت بتطوير نفسي، وحرصت كل الحرص على أن أكون مثالاً للمعلمة المتميزة التي تأتي بكل جديد .. وحرصت على اكتساب المهارات التي تتعلق بالممارسات أو الإجراءات التي ينبغي علي اتّباعها لتحقيق أهداف درسي .. وكنت أحرص الحرص كله على أن أخرج نفسي من ذلك القالب الذي تأثرت به من معلماتي في مرحلتي الدراسية؛ على أنه مجرد نقل للتراث المعرفي من الكبار إلى الصغار .. إلى ممارسات جديدة تعكس فهم التدريب باعتباره عمليات عديدة تهدف إلى نمو المتعلم من خلال نشاطه مع إرفاقه بنشاط المعلم من خلال التوجيه والإرشاد، عن طريق ما يسمى بطرائق

التدريس الحديثة التي اكتسبتها من مشاركتي في برنامج شبكة المدارس النموذجية «الإيميديست» لمدة ثلاثة أعوام، حيث قام بتطوير برنامجه التدريبي بما يتناسب مع احتياجات المعلمين المشاركين ما أكسبني الفرصة للإبداع وإيجاد تجربة تعليمية متميزة لطالباتي تتعدى حدود الغرفة الصفية.

التحقت بعد ذلك بورش تدريبية ومحاضرات في التكون المهني، ولقاءات عن عباءة الخبير مع مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، ولهذا أعتبر نفسي من المحظوظين .. لما عاد عليّ بالمتعة الكبيرة والفائدة الأكبر، كوني مدرسة لفئة عمرية حرجة ومعلمة لمادتي العلوم والرياضيات، وحبي لتطوير نفسي والسعي وراء المعرفة والخبرة في شتى المجالات والميادين، وعرفاناً مني بفضل مدرستي وتكريماً لكل من يعمل بين أسوارها، وإهداء للطالبات اللواتي يدرسن على مقاعدها، راجية من الله أن أكون قد وفقت في اختيار ما يناسب هذه المدرسة .. وقد كلفني ذلك جهداً كبيراً ليخرج في النهاية مبادرة تليق بالتميز الموجود في المدرسة، لتبقى صورة مدرستي أجمل ما يكون .. فقد قمت وطالباتي بإخراج مجموعة من الدروس باستخدام الدراما والقصة والموسيقى .. واستخدمت الألعاب التربوية في شرحي .. وباستمرار أنوّع في أساليب التدريس الحديثة من تكنولوجيا وألعاب إلكترونية ... وغيرها.

فمدرستي تتميز بنشاطاتها المجتمعية، والمشاركة دوماً في المعارض في المدارس المحيطة حولها ... وبالنسبة لي، أجمل اللحظات هي تلك التي أقضيها مع طالباتي، أساعدهن وأعلمهن وأتقرب منهن. فشعوري متداخل بين الاعتزاز والافتخار بتلك العلاقة الرائعة التي تربطني بطالباتي، فهنّ يبادلنني المشاعر نفسها، وأرى في عيونهن نظرات الإعجاب والمحبة، وتنطق ألسنتهن يومياً بحبي وحب مادتي، وتعج حقيبتي يومياً برسائل المحبة وزهور البساتين التي يقطفنها تعبيراً عن حب صادق.

وها أنا أصبحت مدرسة، وهذا ما لم يكن بحسباني، ولكني اليوم أفخر بنفسي وبهذه المهنة الشريفة، وأشكر كل من كان لهم أثر في حياتي .. فقد علموني كيف أكون معلمة أحسن فن التعامل مع طالباتي .. وبعد طول سنين، تذكرت قول معلمة كانت تقول لنا دائماً هذه العبارة الماسية «لو لم أُخلق معلمة .. لتمنيت أن أكون .. نعم .. كيف لا أتمنى أن أكون وأنا صانعة العقول وزارعة الفضائل؟»، والآن وأنا معلمة أحمل هذه الرسالة السامية أصبحت أدرك معنى هذه العبارة، وأحمد الله الذي اختارني لحمل هذه الرسالة السامية .. رسالة الأنبياء والرسل .. نعم أنا معلمة .. لكن أكبر مدرسة لي أنا، هنّ تلميذاتي الحبيبات، اللواتي أسأل الله الإخلاص والتوفيق لهن ولزميلاتي .. فالخيار لك؛ إما أن تكون وإما لا تكون .. ودائماً ابحث عن النجاح تجده في داخلك.

ودائماً سر النجاح هو الدافع من رغباتي المشتعلة .. ولمعلمتي أقول: معلمتي الحبيبة، لن أبلغ المجد لولاك .. فأنت من جعلتني مجتهدة .. علمتني كيف أترك أثراً طيباً خلفي .. علمتني كيف أذلّل العقبات وأجعل منها سلماً أرتقي به للقمة .. علمتني كيف أستشرف المستقبل بعيون لامعة تراه يلوح مبتسماً من بعيد .. علمتني كيف تكون السعادة الحقيقية .. علمتني أن السعادة تكون عندما نعطي بسخاء دون أن ننتظر مقابلاً .. وأجمل عطاء الإنسان عندما يُعطيه لوطنه .. فأنا اليوم أخط رمزك بسطوري المتواضعة كي أقول لك شكراً .. ولكل معلم جديد ومعلمة جديد على التدريس أقول:

عليكم خوض هذه التجربة .. واحترام الطلاب وتقديرهم وتشجيعهم على البحث دائماً، والتخطيط المستمر الفعّال، ومتابعة المستجدات التربوية، والخروج إلى التطبيق العملي لإستراتيجيات التعليم والتقويم، والحرص على التواصل التام والتعاون الفعّال مع الإدارة والزميلات والمجتمع المحلي، والبحث عن كل ما هو جديد وثري لعميلة التعليم .. وبالنسبة لتجربتي الشخصية كان شعوري بالسعادة أن أكون محاطة بأناس إيجابيين مهتمين داعمين محفزين .. أناس يؤمنون بي ويشجعونني على السعي وراء أحلامي ويفرحون لنجاحاتي .. لن أقف عند هذه النقطة وأنظر للخلف، بل سيتجه نظري إلى استكمال دراستي الجامعية العليا ... وحضور الدورات التدريبية مع «القطّان» وغيره حول طرائق التدريس المتنوعة الحديثة، بما يخدم مهنتي ومجتمعي، وتصل معرفتي وخبرتي العلمية والعملية للمعلمين، وبخاصة الجدد منهم .. لأنه بنظري المسؤولية تتركز حول كيفية المحافظة على التميز وهو الأصعب من الوصول إلى التميز .. حيث لا بد من إثبات تميزك على الأصعدة الاجتماعية والتربوية والمهنية كافة.

مدرسة بنات صفا الثانوية